

تفسير البحر المحيط

@ 510 @ ءَايَاتُهَا بِاَيِّذَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ السَّادِّينَ كَفَرُوا °
المُنْكَرَ { وتقول : إذا جاء زيد لا يجيء عمرو . قال الحوفي : فلا يخفف جواب إذا ، وهو
العامل في إذا ، وقد تقدم لنا أن ما تقدم فاء الجواب في غير أما لا تعمل فيما قبله ،
وبينا أن العامل في إذا الفعل الذي يليها كسائر أدوات الشرط ، وإن كان ليس قول
الجمهور . وجعل الزمخشري جواب إذا محذوفاً فقال : وقد قدر العامل في يوم نبعث مجزوماً
قال : ويوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وكذلك وإذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم فلا
يخفف ولا هم ينظرون كقوله : { بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ } فتبتهتهم الآية انتهى . والظاهر
أن قوله : شركاءهم ، عام في كل من اتخذوه شركاء □ من صنم ووثن وآدمي وشيطان وملك ،
فيكذبهم من له منهم عقل ، فيكون : فألقوا عائداً على من له الكلام ، ويجوز أن يكون
عاماً ينطق □ تعالى بقدرته الأوثان والأصنام . وإضافة الشركاء إليهم على هذا القول
لكونهم هم الذين جعلوهم شركاء □ . وقال الحسن : شركاؤهم الشياطين ، شركوهم في الأموال
والأولاد كقوله تعالى : { وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُلْوِ } ، وقيل : شركاؤهم
في الكفر . وعلى القول الأول شركاؤهم في أن اتخذوهم آلهة مع □ وعبدوهم ، أو شركاؤهم
في أن جعلوا لهم نصيباً من أموالهم وأنعامهم ، والظاهر أن القول منسوب إليهم حقيقة .
وقيل : منسوب إلى جوارحهم ، لأنهم لما أنكروا الإشارك بقولهم : { إِنْ لَّا أَنْ قَالُوا °
وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مِنْكُمْ مَّشْرِكِينَ } أصمت □ ألسنتهم وأنطق جوارحهم . ومعنى :
تدعو ، ونعبد قالوا ذلك رجاء أن يشركوا معهم في العذاب ، إذ يحصل التآسي ، أو اعتذاراً
عن كفرهم إذ زين لهم الشيطان ذلك وحملهم عليه ، إن كان الشركاء هم الشياطين . وقال أبو
مسلم الأصبهان . قالوا : ذلك إحالة هذا الذنب على تلك الأصنام ، وطناً أن ذلك ينجيهم من
عذاب □ أو من عذابهم ، فعند ذلك تكذبهم تلك الأصنام . وقال القاضي : هذا بعيد ، لأن
الكفار يعلمون علماً ضرورياً في الآخرة أن العذاب سينزل بهم ، ولا نصرة ، ولا فدية ، ولا
شفاعة . وتقدم الإخبار بأنهم شركاء ، والإخبار أنهم كانوا يدعونهم : أي يعبدونهم ،
فاحتمل التذكيب أن يكون عائداً للإخبار الأول أي : لسنا شركاء □ في العبادة ، ولا آلهة
نزهوا □ تعالى عن أن يكونوا شركاء له . واحتمل أن يكون عائداً على الإخبار الثاني وهو
العبادة ، لما لم يكونوا راضين بالعبادة جعلوا عبادتهم كلاً عبادة ، أو لما لم يدعواهم
إلى العبادة . ألا ترى أن الأصنام والأوثان لا شعور لها بالعبادة ، فضلاً عن أن يدعو وإن
من عبد من صالح المؤمنين والملائكة ، لم يدع إلى عبادته . وإن كان الشركاء الشياطين

جاز أن يكونوا كاذبين في إخبارهم بكذب من عبدهم ، كما كذب إبليس في قوله : { إِنْ رَأَى كَفَرًا تَبَرَأَ إِلَيْهِ } وَالضَّمِيرُ فِي إِيَّاهُ فَأَلْقَوْا عَائِدَ عَلَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، قَالَه الْأَكْثَرُونَ . وَالسَّلَامُ : الْإِسْلَامُ وَالْإِنْقِيَادُ لِحُكْمِ اللَّهِ بَعْدَ الْإِبَاءِ وَالْإِسْتِكْبَارِ فِي الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِذْ ذَاكَ حِيلَةٌ وَلَا دَفْعٌ . وَرَوَى يَعْقُوبُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو : السَّلَامُ بِإِسْكَانِ اللَّامِ . وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ : بَضَمِ السَّيْنِ وَاللَّامِ . وَقِيلَ : الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَشُرَكَائِهِمْ كُلَّهُمْ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : اسْتَسْلَمُوا مُنْقَادِينَ لِحُكْمِهِ ، وَالضَّمِيرُ فِي وَضَلُوا عَائِدٌ عَلَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا خَاصَّةً أَيْ : وَبَطَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ مِنْ أَنََّّهُمْ شُرَكَاءُ وَأَنَّهُمْ يَنْصُرُونَهُمْ وَيَشْفَعُونَ لَهُمْ حِينَ كَذَبُوهُمْ وَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَ مُبْتَدَأٌ وَزِدْنَاهُمْ الْخَيْرَ . وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : الَّذِينَ ، بَدَلًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي يَفْتَرُونَ . وَزِدْنَاهُمْ فَعَلَ مُسْتَأْنَفٌ إِيَّاهُ . وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ : غَيَّرُوا زِدْنَاهُمْ عَذَابًا بِسَبَبِ الصَّدِّ فَوْقَ الْعَذَابِ ، أَيْ : الَّذِي تَرْتَبُ لَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ ضَاعَفُوا كُفْرَهُمْ ، فَضَاعَفَ اللَّهُ عِقَابَهُمْ . وَهَذَا الْمَزِيدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَقَارِبُ كَأَمْثَالِ النَّخْلِ الطَّوَالِ ، وَعَنْهُ : حَيَاتُ كَأَمْثَالِ الْفِيلَةِ ، وَعَقَارِبُ كَأَمْثَالِ الْبِغَالِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهَا مِنْ صَفَرٍ مَذَابِ تَسِيلٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَعَذِّبُونَ بِهَا ، وَعَنْ الزَّجَّاجِ : يَخْرُجُونَ مِنْ حَرِّ النَّارِ إِلَى الزَّمْهَرِيرِ ، فَيَبَادِرُونَ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ إِلَى النَّارِ ، وَعَلَّلَ تِلْكَ الزِّيَادَةَ بِكَوْنِهِمْ مُفْسِدِينَ غَيْرَهُمْ ، وَحَامِلِينَ عَلَى الْكُفْرِ . وَفِي كُلِّ أُمَّةٍ فِيهَا مَنْهَا حَذَفَ فِي السَّابِقِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَثْبَتَهُ هُنَا وَحَذَفَ هُنَاكَ فِي وَأَثْبَتَهُ هُنَا ، وَالْمَعْنَى فِي كُلِّهِمَا : أَنَّهُ يَبْعَثُ